العرب
الخميس 2020/02/20
السنة 42 العدد 11623

جلسات «الونسة» تنسي الأفريقيات غربتهن في مصر

رقص وموسيقى ودورات تعليمية للاجئات يبحثن عن الحماية والدعم النفسي

يتوه اللاجئـون واللاجئات الأفارقة في أصقاع الدنيا لا يعرفون سـبيلا لكسـب قوتهم واستقرارهم الاجتماعي في دولة لا يعرفون لغتها ولا طباع ناسـها، ولا يمتلكون مؤهلات علمية ومهنية تميزهـم عن المجتمع الجديد الذي استقروا به، فتزداد حياتهم غربة وضياعا. في مصر سعت جمعيات خيرية إلى تنظيم جلسات أسبوعية لاحتواء اللاجئات الأفريقيات، ودعمهن نفسيا وتدريبهن على حرف تساعدهن على كسب قوتهن وكرامتهن.

جلسة تشيع الأمان

أحمد حافظ
كاتب مصري

القاهـرة - داخل مجموعة من الغرف الصغيـرة التي لا تتجاوز كل واحدة منها خمسـة أمتار، تجتمع بشـكل أسـبوعي العشرات من اللاجئات الأفريقيات بصحبة أبنائهن بمقر مؤسسات اجتماعية مهتمة برعايـة اللاجئات في مصـر، للبحث عن طرق مبتكرة للاندمـاج والتقارب الفكري والثقافي فـي ما بينهن، وبحـث الحلول الممكنـة لمشـكلاتهن التـي عجـزن عن مواجهتهـا، سـواء كانـت اجتماعية أو أسرية أو قانونية أو حتى اقتصادية.

تستهدف مؤسسات رعاية اللاجئات، النسـاء من جنسـيات الـدول الأفريقية، فهنـاك السـودانيات والصوماليـات والإثيوبيـات والإريتريات، كل منهن تجد في هـذه اللقاءات الأسـبوعية ملاذا آمنا للهـروب مـن قسـوة الحياة واكتسـاب الخبرات والمهارات التي تساعدهن على الاستقرار الاجتماعي والنفسي والأسري داخل مصر، بعدما اخترنها وطنا بديلا.

وتكفـي مراقبـة ملامح النسـاء عند حضورهن إلى ملتقـى اللاجئات، مقارنة بملامحهن عند انتهاء الفعاليات لملاحظة حجم الراحة النفسية التي يكتسبنها من المـكان، وإن جئـن محملات بمشـكلات وأزمات وهموم لم يتم حلها.

يكفـي أنهـن عشـن أجـواء مرحـة ومبهجة، واكتسـبن صداقات جديدة من جنسيات مختلفة، وفضفضن عن أنفسهن ووجدن من يسمعهن ويقدر معاناتهن.

وفـي كل غرفـة بعيـدة، هنـاك عالم تعيش فيه لاجئات، ينعزلن عن مضايقات الشـارع وعنصريـة المـارة والجيـران، ويضعـن تركيزهن في السـاعات القليلة التي يقضينها مـع رفيقاتهن بين جدران المكان. وفي غرفة أخرى قد يجلسـن أمام مدرب موسيقى، وعلى مقربة منهن تتعلم سـيدات أخريـات مهـارات التعامـل مع الصدمة وبناء القـدرات الخاصة، وهناك حجرة ثالثة مخصصة للدعم النفسي.

وتنتشـر مقرات المؤسسات الخيرية التي تستهدف تحسين وضعية اللاجئات بمصر في محيط المناطق المعروفة بأنها أكبر تجمـع للاجئين، مثـل أرض اللواء ووسـط البلد والمعـادي والمقطم وعين شمس والجبل الأصفر في القاهرة، والهرم وفيصـل بمحافظـة الجيـزة المتاخمـة للقاهرة، ومع الوقت تحولت المؤسسـات إلى ما يشبه السفارات الشعبية للاجئات وأطفالهن.

حلقات دائرية

اعتـادت ماجـدة إبراهيـم، وهـي أم سـودانية، القيـام بزيارة دوريـة برفقة أسـرتها الصغيـرة المكونـة مـن ثلاثة أطفال، للقاء عائلتها الكبيرة من السيدات الأفريقيات، داخل مقر جمعية تفاؤل بحي فيصل الشعبي جنوب غرب القاهرة، حيث تتجمـع اللاجئات في جلسـات فضفضة أو جلسـات ونسـة كمـا يقـال باللهجة السـودانية، يتناولن أقداحـا من القهوة، ويتحدثـن في أمـور حياتهن والمصاعب التي تواجههن.

تجلس اللاجئات في حلقات دائرية، وفي المنتصف سيدة تمتلك خبرة إعداد القهوة السودانية على نار هادئة، تتلمس منها السيدات دفء الصحبة والتعارف والتقارب بعدما فرقتهن عن عائلاتهن ظروف دفعتهن للهجرة إلى مصر، وأبعدتهن عن أوطانهن أحداث متباينة، إما صراعات مسلحة وإما اضطرابات سياسية، ومهما اختلفت الأسباب، تبقى ظروفهن متشابهة.

قالت ماجدة لـ"العرب"، على هامش مشـاركتها في جلسة للنساء أقامتهـا إحـدى المؤسسـات المهتمـة بتحسـين أوضاع اللاجئات، إن جلسات الفضفضة وسـيلة مثاليـة للتنفيس عن الهموم والتخفيف من الضغوط من خلال المسـاعدة بالنصيحة أو خبرات الحياة أو تبادل الأفكار، فقد تتحدث واحدة منهن عن حلمها في تعلم مهنة تصفيف الشعر، وتحظى الفكـرة بتأييد الحاضرات، وهنا يتحركن لتعلم الحرفة وإقامة المشروع.

وإذا انتهت جلسة الفضفضة ورحلت كل النسـاء بعـد احتسـاء القهـوة، فإن اللاجئات ينظـرن إلى هذا اللقاء على أنه أخرج الطاقات السـلبية من أجسـادهن، وأحيانا يشـارك متخصصون نفسـيون في هذه الجلسات، ويستمعون للمشكلات التي تتحدث عنها السـيدات، ويطرحون حلولا لها.

وتحظـر هـذه الجلسـات النسـائية الحديـث عـن الطائفيـة والانتمـاءات الدينيـة والخلافات السياسـية، ما جعل من المؤسسـات التي تعنـى باللاجئات فضـاء مثاليا تقصده الهاربات من جحيم العنصرية، فغاية الجلسـات الأسـبوعية البحث عـن حيـاة يغلب عليهـا الطابع الإنساني والانسـجام والتفاهم وتكوين علاقـات أسـرية بيـن أمهـات وفتيـات ذقـن مـرارة الغربة بعيدا عـن أوطانهن، ومساعدتهن في العيش بأمان وسلام.

في هذه الفضاءات المثالية، تصطحب كل لاجئـة عائلتها الصغيـرة من الأبناء، لتتعرف على أمور جديدة يمكن أن تحسن من مستواها الاجتماعي والاقتصادي.

هنـاك ورش مجانيـة للتدريـب علـى الحـرف الصغيـرة، مثـل صناعة الإكسسوارات والحياكة والحُلي وتصميم الملابـس، بحيث تصبـح الواحدة منهن محترفة في تصنيع منتج معروف ببلدها وتبيعـه لأبنـاء جنسـيتها والمصريين كنـوع مـن الاعتـزاز بالتـراث الخاص بالوطن، فضلا عن زيادة الدخل المادي.

وبهـذه التربصـات البسـيطة فـي ظاهرهـا، امتلكـت الكثيـرات مـن اللاجئـات مهـارات فائقـة فـي الحياكة وتصميـم الملابـس لأبنائهـن دون أن يكـن مضطـرات لشـرائها من الأسـواق المصرية، حتى الحقائب المدرسـية يتم تصميمهـا، وبالتالـي يتم توفيـر أموال هـذه المسـتلزمات لإنفاقها على أشـياء أخـرى مثـل الأكل والشـرب والـدواء. وتتبرع بعض اللاجئات السـودانيات من المحترفات في رسم الحناء التي يشتهرن بهـا، بتدريـب اللاجئـات علـى امتهان الحرفـة بشـكل يسـاعدهن علـى زيادة مواردهـن، وهو مـا جعل مـن تجمعات اللاجئات مكانا يشـبه الملتقى التدريبي الذي تخـرج منه الواحـدة منهن بحرفة تمكّنها من التغلب على بعض مشـكلاتها الاقتصادية.

قالت إيمان طاهر، رئيسـة مؤسسـة "تفـاؤل" لرعايـة اللاجئات فـي لقاء مع "العـرب"، إن 60 فـي المئـة مـن أزمـات اللاجئات تتعلـق بالجانـب الاقتصادي فـي حياتهن، لذلك يبحثـن عن أي طريقة تسـاعدهن علـى توفير الحـد الأدنى من احتياجات أسرهن، لافتة إلى أن الاهتمام بالنساء تحديدا يرتبط بأنهن من يتحملن المسؤولية الكاملة، لفقدان الزوج لأسباب مختلفـة، مـا يضع عليهن أعباء نفسـية تفوق قدراتهن.

وأضافـت "أزمـة بعـض المصريين في التعامل مـع اللاجئين عموما، تتمثل في أنهـم يصنفونهم ضمن فئة السـياح والأغنيـاء، ويتعاملـون معهم من منطلق الربـح المادي، وهو ما يضاعف المعاناة علـى السـيدات اللاجئات، حيـث يدفعن أحيانـا في إيجار منـزل ضعف ما يدفعه المصريـون، وأنا واحدة من هؤلاء، حيث يجبرني مالك المنزل على دفع ألفي جنيه، في حين أن جاري المصري يسكن بنصف هذا المبلغ".

دروس في الحياة

تزداد معانـاة اللاجئات من الجوانب الصحيـة لهن ولأبنائهـن وتوفير معلوم الطبيـب والـدواء، لكـن للمؤسسـات الاجتماعيـة حلولا لهذه المشـكلة، وذلك بعقـد دورات مجانيـة للتعريـف بطرق اكتشـاف الأمراض والوقايـة من الأوبئة عبر أطباء في تخصصات مختلفة.

الورش الطبية هذه تشـجع اللاجئات الأفريقيـات علـى الاندمـاج بينهن عبر التلاقـي فـي الأسـئلة والاستفسـارات والمخاوف والمطالب.

هـذه فرصة اسـتثنائية للحـوار، قد لا تتواجـد خـارج جـدران المؤسسـات الخيرية، فقد تلتقي اللاجئات في الشارع، أو يتجـاورن في السـكن، لكن لا يتحدثن معا عن عللهن الصحية والنفسية، وحتى إن أفصحت إحداهن عن مرضها، إلا أنها في جلسـات الفضفضة مـا تلبث أن تجد حاضنـة اجتماعيـة مـع باقي النسـاء اللاتي تجتمع معهن أسبوعيا.

وإذا كانت اللاجئة تعاني الأمية، فإن هناك أياما مخصصة للمحاضرات التعليمية، يتم تقديمها عبر متخصصين في فهم لغة كل جنسـية، حتـى أن بعض المؤسسـات تقدم ورشا تدريبية لفهم طبيعة المجتمع المصـري المضيـف وثقافتـه وطريقـة التعامـل مـع المواطنيـن في الشـارع ليكونـوا أكثـر انـدماجـا، ولتتجنـب اللاجئـات المضايقات من بعض المارة، وهناك دورات أخـرى قانونية لتعريفهن بطرق الحصول على حقوقهن قانونيا.

لا تنكر أم عابد، وهي لاجئة سـودانية التقت بها "العرب" داخل إحدى الجلسات النسـائية، أن التحـرش اللفظـي أكثـر مـا تعانيـه اللاجئـات، ما يسـبب لهن ألمـا نفسـيا، وقـد أصبحت تشـارك في المحاضـرات النفسـية التـي توفرهـا المؤسسـات المعنية بشـؤون اللاجئات، حتـى تكتسـب خبـرة التعامل مـع هذه المضايقات.

وقالت "ليس شرطا أن أكتسب الخبرة والوعي من متخصصين نفسـيين، فهناك لاجئات مثقفات يشـاركن في الجلسـات يدلين بآرائهن وأفكارهن لحماية النسـاء من التحرش والتلاسن والتنمر، فكثيرا ما تعرضـت لذلك والتزمت الصمت، وأحيانا أبكـي علـى حالي، لكـن أصبحـت أكثر شجاعة وقدرة على المواجهة الآن".

وترتبط شـكوى الكثير من اللاجئات بتعرضهـن لمضايقـات باختيارهـن الاسـتقرار والعيش في أماكن شـعبية لا ترتفع فيها تكلفة إيجار السكن.

ومعروف أن هذه المناطق تغلب عليها العشـوائية وعـدم الانضباط السـلوكي لبعض الشباب.

وشـاركت "العـرب" في إحـدى هذه الفعاليات المخصصة للاجئات وأسرهن، ورصـدت عن قـرب الهدف مـن تجميع هـؤلاء بشـكل دوري، بغـض النظر عن جنسياتهن، وهو إضفاء الراحة والسلام والمحبـة بينهـن وتجـاوز الصعوبات الحياتيـة واتسـاع أفقهـن وإكسـابهن ثقافـات وأفـكارا وخبـرات جديـدة وإخراجهن من أجـواء اليأس والإحباط التي يعشن فيها.

واسـتهدفت الفعالية إلمام اللاجئات بطقوس الـزواج السـوداني مـن لباس واحتفال للتقريب بين الثقافات، ففي قاعة صغيـرة تتسـع لنحو 50 لاجئـة، يجلس شـاب وفتاة يحملان الجنسية السودانية وسـط العشـرات مـن أصحاب البشـرة السمراء، يؤديان دور العريس والعروس، وعلى مقربة منهما بعض الأطفال يرتدون ملابـس تعبـر عـن التـراث السـوداني ويقدمون فقرات فنية وغنائية راقصة على أصوات الزغاريد النسائية.

ويتكـرر المشـهد ذاتـه فـي أيـام أخرى، ولكن للتعريف بطقوس جنسـية مختلفـة، وتريـد المؤسسـات المعنية برعاية اللاجئات مـن وراء التقريب بين النسـاء ثقافيـا، أن يتعرفـن وأطفالهن علـى عـادات وتقاليد بعضهـن وتقريب المسـافات بينهن، حتى يتم التسريع من وتيـرة اندماجهن معـا، بحيث يصبحن وكأنهن من بلد واحد لا تفرقهن الجنسية واللغة.

وتتسـم أكثـر تجمعـات اللاجئـات بالمرح والترفيـه دون خوف من النظرات المريبة أو ردود الفعل الاسـتنكارية، ومع انتهاء اليوم تكون هناك جلسـات راقصة على نغمات الموسـيقى الأفريقية وكلمات الأغاني التي لا يفهمها غيرهن.

ويصعب على اللاجئة وسـط ظروفها المعيشـية الصعبة، في عملهـا أو حتى داخـل منزلها، أن تمـارس هواية الرقص لإسعاد نفسـها ومداواة همومها بالمرح، لذلـك تذهب لهذا التجمع النسـائي الذي تتشابه ظروفه وتفاصيله حتى تتمايل مع الموسـيقى وتندمج مع بنات جنسها من اللاجئات.

درس تطبيقي في تقاليد الزواج

> ورشات طبية يديرها مختصون لتعليم اللاجئات الإسعافات الأولية الخاصة بالحوادث الطارئة والانتباه المبكر للأمراض والوقاية من الأوبئة

وتلجأ بعـض المؤسسـات المهتمة برعاية اللاجئات، إلى إدراج الفن الراقص ضمن مشـروعاتها الخدمية ليكون سلاح المرأة في مواجهة صدمات الغربة، حيث يتم الاعتماد على متدربات من جنسـيات أفريقيـة مختلفة، لعقد جلسـات تشـرح أهميـة فن الرقـص الهـادئ للترويح عن النفس وتجاوز ضغوط الحياة.

صحيح أن هذه النوعية من التجمعات بخدماتها المتنوعة أحدثت نقلة نسـبية في حياة اللاجئات، لكنها تعكس بوضوح أن الشـارع المصري مازالت عنده مشكلة في التعامل مع اللاجئين عموما.

حلقة رقص

60

في المئة من أزمات اللاجئات تتعلق بالجانب الاقتصادي لذلك يبحثن عن حلول تساعدهن في تأمين الحد الأدنى من احتياجات أسرهن